قراءة موضوعية لقضية الصلح بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية

(تحقيق لبشارة المصطفى عليه الصلاة والسلام وتجلٍ لحكمة الإمام الحسن عليه السلام)

الأستاذ الدكتور
المصطفى إيدوز
جامعة موندياباوليس- الدار البيضاء- المملكة المغربية

مقدمة:

لقد كتب كثيرا عن موضوع الصلح، وسال حوله مداد كثير، واختلف الناس كثيرا في تحليل قضية الصلح، ما بين منتقد لموقف الإمام السبط الحسن رضي الله تعالى عنه، وبين مؤيد لموقفه بشكل عام. كما اختلف الناس حول تفسير بنود الصلح، حيث إن كل واحد - ممن تطرق إلى الموضوع -، قد أوّلها بطريقته الخاصة. وفي غمرة الصراعات، والتعصب لمذهب دون آخر تذهب الحقيقة ولا يبقى إلا السراب. ذلك أن الأحكام إن لم تتميز بالموضوعية والمنطق، حملت معها تأويلات خاصة تخدم مصلحة دون أخرى.

ولاشك أن كثيرا من المحللين لقضية الصلح قد تجاوزوا بشارة النبي عليه الصلاة والسلام، حينما بشّر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الحسن عليه السلام سيد، وأنه سيصلح بين فئتين من المسلمين، وكأن هذا الخبر كباقي الأخبار، وكأن هذه البشارة لا تستحق ما تستحق من الدراسة والبحث والاعتزاز والافتخار والتصديق. الأمر الثاني الذي غاب عن هؤلاء المحللين لقضية الصلح، هو الحكمة الكبيرة التي كان يتحلى بها الحسن عليه السلام، لأن قبوله بالصلح - وهو في موقف قوة- ينطوي على أبعاد سياسية تدبيرية عظيمة، لو فقهها حكام اليوم لجنبوا أوطانهم كثيرا من الويلات، والحروب، وقتل النفوس البريئة. كما أن بنود الصلح لم تنل حظها من التحليل العميق المتزن. فما الذي يسعى إليه هذا البحث؟ وما هو الجديد

الذي يبشر به في قضية الصلح بين الحسن عليه السلام ومعاوية؟ وما هي القراءة الجديدة لبنود هذا الصلح؟

هذه الأسئلة وغيرها سيحاول هذا البحث الإجابة عليها.

تحديد مشكلة البحث:

تتحدد مشكلة البحث في تجاوز التصورات السابقة والأحكام السالفة حول قضية الصلح بين الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق ما يلي:

١- إنجاز قراءة أخرى لقضية الصلح

٢- كشف أبعاد أخرى لقضية الصلح

٣- كشف أبعاد البشارة النبوية بأن الإمام عليه السلام سيصلح بين فئتين من المسلمين

٤- الكشف عن حكمة الإمام المجتبى عليه السلام في اختيار الصلح بدل الحرب.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية البحث في أنه سيتناول قضية الصلح بمنظور آخر غير المتداول بين الناس اليوم.

مصطلحات البحث:

قراءة موضوعية- قضية الصلح بين الإمام الحسن ومعاوية-بشارة المصطفى عليه الصلاة والسلام-حكمة الإمام الحسن عليه السلام.

المنهج العلمي للبحث:

سيعتمد هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، الذي يعتمد على تجميع

المعلومات والحقائق، ثم مقارنتها، وتحليلها وتفسيرها للوصول إلى تعميمات مقبولة.

خطة البحث:

الفصل الأول: في نسب سيدنا الحسن عليه السلام وخلقه، وخلافته.

الفصل الثاني: الصلح تحقيق لبشارة المصطفى وتجلٍ لحكمة الحسن عليه السلام.

الفصل الثالث: شخصية الإمام عليه السلام العظيمة وأثرها في قضية الصلح.

الفصل الأول

في نسب سيدنا الحسن عليه السلام وخلقه، وخلافته

نسبة وكنيته ونشأته، وأخلاقه.

هو أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب بن هاشم بن عبد مناف القرشي[١].

وهو سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته واشبه الناس به شكلا، أمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله[٢]، وابوه علي بن أبي طالب ابن عم النبي صلى الله عليه وآله واربع الخلفاء الراشدين ومن السابقين الأولين.

وهو أكبر ولد أبيه ولد للنصف من رمضان سنة ثلاث للهجرة النبوية الشريفة على الارجح فحنكه رسول الله صلى الله عليه وآله بريقه وسماه حسناً.

كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبه حبا شديدا حتى كان يقبل ذبيبته وهو صغير، وربما مص لسانه واعتنقه وداعبه[٣].

وفي يوم خطب رسول الله صلى الله عليه وآله الناس وهو على المنبر والحسن الى جنبه فكان ينظر اليه مرة والى الناس مرة ويقول: (ان ابني هذا سيد، ولعل الله ان يصلح به

بين فئتين من المسلمين[٤].

كان الحسن عليه السلام من أكرم الناس وربما أجاز الرجل الواحد بمائة الف، وكان يقرأ كل ليلة سورة الكهف قبل ان ينام، بعدما يدخل في الفراش، وكان اذا صلى الغداة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة يجلس يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم يقصد ازواج رسول الله صلى الله عليه وآله امهات المؤمنين فيسلم علين ثم ينصرف الى منزله، وقد قاسم الله ماله ثلاث مرات، وخرج من ماله مرتين، وحج ماشيا خمسا وعشرين مرة وقيل خمس عشرة مره[٥].

قال عنه السيوطي ((كان الحسن رضي الله عنه له مناقب كثيرة، سيدا حليما، ذا سكينة ووقار وحشمة، جوادا، ممدوحاً، يكره الفتن والسيف[٦].

وقد شارك الحسن في غزو افريقيا ضمن جيش المسلمين الذي وجهه الخليفة حينذاك وهو عثمان بن عفان ففتح الله عليهم وحققوا النصر ثم عاد الى المدينة ومعه اخاه الحسين بن علي عليه السلام[٧].

وقد كان عثمان يكرم الحسن والحسين ويحبهما، وفي يوم الدار كان الحسن متوشحا سيفه يدافع عن عثمان ضد من حاصروا بيته حتى اقسم عليه عثمان ان يرجع الى منزله خوفا عليه[٨].

وذات يوم وقد كان الحسن في طريق مكة فنزل عن راحلته ومشى على قدميه، فنزل جميع من كان في الرحلة، ومشوا على أقدامهم، وممن كان في القافلة الصحابي الجليل سعد بن عبادة فنزل عن راحلته ومشى الى جنب الحسن[٩].

وكان عبد الله بن الزبير يقول ((والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن علي))[١٠]. وقد بلغ من تعظيم المسلمين للحسن بن علي كونه من اهل بيت رسول الله، انه كان يبسط له فراش على باب داره فإذا خرج وجلس عليه انقطع الطريق فما يمر احد من خلق الله اجلالا له، فإذا علم بذلك قام ودخل بيته فيمر الناس[١١].

وكان الحسن واخوه الحسين اذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما من الازدحام عليهما[١٢].

في خلافته عليه السلام:

هو آخر الخلفاء الراشدين بنص جدّه صلى الله عليه وآله ولي الخلافة بعد قتل أبيه بمبايعة أهل الكوفة، فأقام بها ستة أشهر وأياماً، خليفة حق وإمام عدل وصدق تحقيقاً لما أخبر به جده الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله بقوله: الخلافة بعدي ثلاثون سنة، فإن تلك الستة أشهر هي المكملة لتلك الثلاثين، فكانت خلافته منصوصاً عليها، وقام عليها إجماع من ذكر، فلا مَرية في حقيقتها.

وقد بايع الناس الحسن رضي الله عنه بعد موت ابيه على بن ابي طالب الذي قتله الخارجي عبد الرحمن بن عمرو المعروف بابن ملجم الحميري عندما كان يوقظ الناس لصلاة الفجر في الكوفة لسبعة عشر ليلة خلت من رمضان[١٣].

كانت بيعة الحسن سنة اربعين للهجرة بالكوفة يوم موت أبيه رضي الله عنه وقيل بعد موته بيومين[١٤]، وكان اول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة على كتاب الله وسنة رسوله فسكت الحسن ولم يجبه فبايعه قيس بن سعد ثم بايعه الناس بعده[١٥].

وقد كانت خلافة الحسن رضي الله عنه خلافة راشدة على منهاج النبوة ويعد هو خامس الخلفاء الراشدين واستدل العلماء والمؤرخون على ذلك بحديث النبي صلى الله عليه وآله (الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا)) [١٦] وقالوا إنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي فانه نزل عنها لمعاوية في شهر ربيع الاول سنة احدى واربعين للهجرة فيكمل ثلاثون سنة من موت رسول الله صلى الله عليه وآله في ربيع الاول سنة احدى عشرة للهجرة[١٧].

في بعض مآثره عليه السلام:

كان سيداً كريماً حليماً زاهداً ذا سكينة ووقار وحشمة، جواداً ممدوحاً، وسيأتي بسط شيء من ذلك.

أخرج أبو نعيم في الحلية أنه قال: إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمشِ إلى بيته، فمشى خمس وعشرين حجة.

وأخرج الحاكم عن عبد الله بن عمر قال: لقد حج الحسن خمساً وعشرين حجة ماشياً، وإن النجائب لتقاد بين يديه.

وأخرج أبو نعيم أنه خرج من ماله مرتين وقاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات حتى أنه كان ليعطي نعلاً ويمسك نعلاً ويعطي خفاً ويمسك خفاً.

وسمع رجلاً يسأل ربه عزّ وجل عشرة آلاف درهم فبعث بها إليه.

وجاءه رجل يشكو إليه حاله وفقره وقلة ذات يده بعد أن كان مثرياً، فقال: ما هذا حق سؤالك، يعظم لدي معرفتي بما يجب لك، ويكبر علي ويدي تعجز عن نيلك ما أنت أهله، والكثير في ذات الله قليل، وما في ملكي وفاء لشكرك، فإن قبلت الميسور ودفعت عني مؤنة الاحتفال والاهتمام لما أتكلفه فعلت، فقال: يا ابن بنت رسول الله أقبل القليل، وأشكر العطية، وأعذر على المنع، فأحضر الحسن وكيله وحاسبه وقال: هات الفاضل، فأحضر خمسين ألف درهم وقال: ما فعلت في الخمسمائة دينار التي معك؟ قال: هي عندي، قال: أحضرها، فأحضرها فدفعها والخمسين ألفاً إلى الرجل واعتذر.

وإضافته هو والحسين وعبد الله بن جعفر عجوزاً فأعطاها ألف دينار وألف شاة، وأعطاها الحسين مثل ذلك، وأعطاها عبد الله بن جعفر مثلهما ألفي شاة وألفي دينار.

وأخرج البزاز وغيره عنه: أنه لما استخلف، بينما هو يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر وهو ساجد، ثم خطب أناس، فقال:

يا أهل العراق اتقوا الله فينا، فإنا أمراؤكم وضيفانكم ونحن أهل البيت الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١٨] فما

زال يقولها حتى ما بقي أحد في المسجد إلا وهو يبكي.

وأرسل إليه مروان يسبه وكان عاملاً على المدينة ويسب علياً كل جمعة على المنبر فقال الحسن لرسوله: ارجع إليه فقل له: إني والله لا أمحو عنك شيئاً مما قلت بأن أسبّك، ولكن موعدي وموعدك الله، فإن كنت صادقاً فجزاك الله خيراً بصدقك، وإن كنت كاذباً فالله أشدّ نقمة.

وأغلظ عليه مروان مرة وهو ساكت ثم امتخط بيمينه، فقال له الحسن: ويحك أما علمت أن اليمين للوجه والشمال للفرج أفّ لك، فسكت مروان.

ولّما مات بكى مروان في جنازته، فقال له الحسين: أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرّعه؟ فقال: إني كنت أفعل ذلك إلى أحلم من هذا، وأشار بيده إلى الجبل.

وأخرج ابن عساكر أنه قيل له: أباذر يقول: الفقر أحب من الغنى، والسقم أحب من الصحة إليّ، فقال: رحم الله أباذر، أمّا أنا فأقول: من اتكل إلى حسن اختيار الله لم يتمنّ أنه في غير الحالة التي اختار الله له.

وكانت وفاته سنة تسع وأربعين، أو خمسين، أو إحدى وخمسين، أو ست وخمسين، ومنهم من قال: سنة تسع وخمسين، وجهد به أخوه أن يخبره بمن سقاه فلم يخبره، وقال: الله أشدّ نقمة إن كان الذي أظن وإلا فلا يقتل بي والله بريء.

وفي رواية: يا أخي قد حضرت وفاتي ودنا فراقي لك وإني لاحق بربي وأجد كبدي تقطع وإني لعارف من أين دهيت، فأنا أخاصمه إلى الله تعالى فبحقّي عليك لا تكلّمت في ذلك بشيء، فإذا أنا قضيت نحبي فقمّصني وغسّلني وكفّني واحملني على سريري إلى قبر جدي رسول الله صلى الله عليه وآله أجدّد به عهداً، ثم ردني إلى قبر جدّتي فاطمة بنت أسد فادفنّي هناك، وأقسم عليك بالله أن لا تريق في أمري بحّة دم.

الفصل الثاني

الصلح تحقيق لبشارة المصطفى وتجلٍ لحكمة الحسن عليه السلام

١ـ في حب النبي صلى الله عليه وآله للإمام الحسن عليه السلام.

وردت أحاديث كثيرة تظهر الحب الكبير الذي كان يكنه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله للإمام الحسن عليه السلام، ولاشك ان هذا الحب له دلالات عظيمة، من بينها أن الإمام عليه السلام كان يهيئ لأمر عظيم، ولاريب أن مسألة الصلح من الأمور العظيمة التي طبعت سيرة الإمام، ولكن للأسف كثيرا ممن كتبوا في الموضوع يمرون مر السحاب على هذه الإشارات العظيمة في حق الإمام، وانشغلوا بأمور أخرى لا تزيد العلاقات الإنسانية إلا تشنجا، ومن هذه الأحاديث الكثيرة نذكر ما يلي:

- عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله في سوق من أسواق المدينة فانصرف فانصرفت فقال: أين لكع ثلاثاً أدع الحسن بن علي، فقام الحسن بن علي يمشي وفي عنقه السخاب، فقال النبي صلى الله عليه وآله بيده هكذا فقال: الحسن بيده هكذا فالتزمه فقال: اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه، وقال أبو هريرة: فما كان أحد أحب إلي: من الحسن بن علي بعد ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما قال.

- عن أبي أسامة بن زيد قال: طرقت النبي صلى الله عليه وآله ذات ليلة في بعض الحاجة فخرج النبي صلى الله عليه وآله وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه؟ قال: فكشفه فإذا حسن وحسين على وركيه فقال: هذان ابناي وأبنا ابنتي اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما، قال: هذا حديث حسن غريب .

٢ـ في بشارة النبي صلى الله عليه وآله بالحسن عليه السلام وأنه سيصلح بين فئتين من المسلمين:

كثير من الباحثين أسالوا مداد أقلامهم في البحث عن أبعاد الصلح وأهدافه

وتجلياته، وهل أصاب الإمام عليه السلام، حينما اختار مسألة الصلح مع معاوية، ونسوا أو تناسوا الأهم من ذلك، هو أن مسألة الصلح مع معاوية هو تأييد رباني للحسن عليه السلام، تجلى في بشارة النبي عليه الصلاة والسلام، فحق لكل مسلم مهما كان مذهبه أو توجهه أن يفخر بهذا البشارة التي كانت من نصيب الإمام عليه السلام، وليست من تصيب غيره، فإن كان غيره قد حاز الدنيا، فهو عليه السلام قد فضل بالبشارة العظمى من جده عليه الصلاة والسلام وهي أنه سيصلح بين فئتين عظيمتين.

أخرج البخاري عن أبي بكر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول: إن ابني هذا سيّد، ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين.

أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي بكر، قال: كان النبي صلى الله عليه وآله يصلي بنا فيجيء الحسن وهو ساجد وهو ذاك صغير فيجلس على ظهره مرة وعلى رقبته، فيرفعه النبي صلى الله عليه وآله رفعاً رقيقاً، فلما فرغ من الصلاة قالوا: يا رسول الله إنك تصنع بهذا الصبي شيئاً لا تصنعه بأحد، فقال النبي صلى الله عليه وآله: إن هذا ريحانتي وإن هذا ابني سيد وحسبي أن يصلح الله تعالى به بين فئتين من المسلمين.

وروى البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله يقول والحسن بن علي إلى جانبه على المنبر: "ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين."

وأخبر النبي صلى الله عليه وآله بأن الله عز وجل سيصلح بالحسن بن علي رضي الله عنه بين فئتين عظيمتين من المسلمين، ووقع هذا الأمر فعلاً، فإن الحسن رضي الله عنه تنازل بالخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، فقد روي عن أبي بكرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول والحسن بن علي إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: ((إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَ اللهَ أَنْ يُصْلِحُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وهو بشارة نبوية ودلالة مصطفوية على أن

هذه الفرقة ستنتهي، وسيكون الحسن بن علي سببًا في وضع الحرب والاتفاق على الصلح، وعودة المسلمين إلى الجماعة والألفة بعد الفرقة والقتال. ((إن ابني هذا سيد - يعني: الحسن بن علي - ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

وكان تسليم الحسن الخلافة لمعاوية في الخامس من ربيع الأول، سنة إحدى وأربعين، وقيل: في ربيع الآخر، ويقال: في غرة جمادى الأولى من هذه السنة.

وقال ابن كثير: "المشهور أن مبايعة الحسن لمعاوية كانت في سنة أربعين". ولهذا: يقال عام الجماعة؛ لاجتماع الكلمة فيه على معاوية، والمشهور عند ابن جرير الطبري وغيره من علماء السير والتاريخ أن ذلك كان في أوائل سنة إحدى وأربعين، وهذا هو الصحيح.

ومما قاله الرسول صلى الله عليه وآله بحق سيّد شباب أهل الجنة الإمام الحسن عليه السلام وروته كتب العامة قبل الخاصة هو ما روي عن عائشة: ((أن النبيّ صلى الله عليه وآله كان يأخذ حسنًا فيضّمه إليه، ثم يقول: اللهم إن هذا ابني وأنا أحبّه، فأحبّه وأحبّ من يحبّه)). (وكذلك ما رواه ابن عساكر بإسناده عن حذيفة بن اليمان: «إن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: ألا إن الحسن بن على قد أعطي من الفضل ما لم يعطِ أحدٌ من ولد آدم ما خلا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله.

فسار الإمام الحسن عليه السلام بجيش كبير حتى نزل في موضع متقدم عرف بـ((النخيلة))، فنظّم الجيش ورسم الخطط لقادة الفرق؛ ومن هناك أرسل طليعة عسكرية في مقدمة الجيش على رأسها ((عبيد الله بن العباس)) و((قيس بن سعد ابن عبادة)) كمعاون له؛ ولكن الأمور ومجريات الأحداث كانت تجري على خلاف المتوقع؛ وفوجئ الإمام المجتبى عليه السلام بالمواقف المتخاذلة من أنصاره وقادته والمقرّبين له والتي من أهمها:

وأمام هذا الواقع الممزّق وجد الإمام الحسن بن على عليه السلام أن المصلحة العليا

تقتضي عقد ميثاق ((صلح)) مع ((معاوية)) حقنًا للدماء وحفظًا لمصالح المسلمين .

فوقّع ((معاوية)) على ميثاق ((الصلح)) الذي وضع الإمام عليه السلام شروطه بغية أن يحافظ على شيعة ومحبّي وأتباع أهل البيت.

فأقبل ((عبد الله بن سامر)) الذي أرسله معاوية إلى الإمام الحسن عليه السلام حاملاً تلك الورقة البيضاء المذيّلة بالإمضاء وإعلان القبول بكل شرط يشترطه الإمام عليه السلام وتمّ الاتّفاق على وقف القتال حيث نصت ((وثيقة الصلح)) بما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما صالح عليه الحسن بن على بن أبي طالب معاوية بن أبي سفيان، صالحه على أن يسلّم إليه ولاية المسلمين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنّة رسول الله، وليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد من بعده عهدًا، على أنّ الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله تعالى في شامهم ويمنهم وعراقهم وحجازهم .

وعلى أنّ أصحاب على وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم حيث كانوا، وعلى معاوية بذلك عهد الله وميثاقه .

وعلى أن لا يبغي للحسن بن على ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله غائلة سوء سرّاً وجهراً، ولا يخيف أحدًا في أفق من الآفاق .

شهد عليه بذلك فلان وفلان، وكفى بالله شهيدًا.

وانتقل الإمام الحسن عليه السلام إلى مدينة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله بصحبة أخيه الإمام الحسين عليه السلام تاركًا الكوفة التي دخلتها جيوش ((معاوية)) وأثارت في نفوس أهلها الهلع والخوف. وخطب معاوية فيهم قائلاً: ((يا أهل الكوفة! أترون أني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج؟ وقد علمت أنكم تصلّون وتزكّون وتحجّون... ولكنني قاتلتكم لأتأمّر عليكم: وقد آتاني الله ذلك وأنتم له كارهون... وإن كل

شرط شرطته للحسن فتَحْتَ قدميّ هاتين)).

♦ **من أقوال الإمام الحسن عليه السلام في أسباب توقيعه ((وثيقة الصلح)):**

١- أرى والله أنّ معاوية خير لي من هؤلاء يزعمون أنّهم لي شيعة، ابتغوا قتلي وانتهبوا ثقلي وأخذوا مالي.

٢- والله لئن آخذ من معاوية عهداً أحقن به دمي وأؤمن به في أهلي خير من أن يقتلوني فيضيع أهل بيتي وأهلي، والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً.

٣- لولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلاّ قُتِل.

٤- والله لئن أسالمه وأنا عزيز خير من أن يقتلني وأنا أسير أو يمنّ على فيكون سنّة على بني هاشم آخر الدهر لمعاوية لا يزال يمنّ بها وعقبه على الحيّ منّا والميت.

٥- والله ما سلّمت الأمر إليه إلاّ إنّي لم أجد أنصاراً. ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه.

٦- لكنّي أردتُ صلاحكم وكفّ بعضكم عن بعض. وقوله في جواب حجر ابن عدي: ((وما فعلتُ ما فعلتُ إلاّ إبقاءً عليك والله كلُّ يوم في شأن)).

٧- ولكنّي خشيت أن يأتي يوم القيامة سبعون ألفًا أو ثمانون ألفًا تشخب أوداجهم دمًا، كلهم يستعدي الله فيم هريق دمُه.

٨- يا أبا سعيد! علّة مصالحتي لمعاوية علّة مصالحة رسول الله صلى الله عليه وآله لبني ضمرة و... أولئك كفّار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفروا بالتأويل.

وعنه عليه السلام أنه قال ((لا أدب لمن لا عقل له، ولا مروة لمن لا همّة له، ولا حياء لمن لا دين له، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل، وبالعقل تدرك الداران جميعاً، ومن حرم من العقل حرمهما جميعاً.

الفصل الثالث

شخصية الإمام عليه السلام العظيمة وأثرها في قضية الصلح

إذا اردنا ان نفهم اهمية الصلح في أبعاده العميقة، وفي تجلياته الباهرة لابد ثم لابد ان نتجرد من كل تعصب لمذهب دون غيره، فالإمام عليه السلام في فضله وكرمه وحنكته وحكمته، وأحقيته فوق كل اعتبار.

حبه للصلح امتثالا لأمر الله:

ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١٩] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢٠] فترى أن الله تعالى أمر عباده بأن يصلحوا ذات بينهم لما بينهم من الإخاء كما صرح به في آية الحجرات حيث قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[٢١] إذ بينت هذه الآية علّيَّة الأمر بالإصلاح بين المؤمنين بصيغة القصر، المفيدة لحصر حالهم في حال الأخوة، مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين، لما بينهم من انتساب إلى أصل واحد وهو الإيمان الذي هو منشأه البقاء الأبدي في الجنات، فأشارت جملة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ إلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين ومن هذه الأوامر القرآنية يُعلم أن الإصلاح بين الناس ليس من نافلة القول، بل هو تكليف إلهى للقادرين عليه، حتى لا تفسد أواصر الأخوة الإيمانية بين المؤمنين، وهو مع ذلك من التعاون على البر والتقوى، ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذين أمر الله تعالى بهما في غير آية، ومعلوم أن هذا من الواجبات الشرعية التكليفية على المؤمنين في علاقتهم الاجتماعية، فكل هذه الأمور تحتم على المسلم

القيام بالإصلاح بين المسلمين بل وبين الناس عامة، ولتستقر الحياة الاجتماعية عامرة بالود والإخاء[٢٢]، كانت هذه الأوامر دافعة للحسن بن على رضى الله عنه للسعى في الإصلاح.

صلح الإمام الحسن من خلال كلامه عليه السلام:

عن زيد بن أرقم قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى انتهينا إلى غدير خم عند شجيرات خمس ودوحات عظام فكنس الناس ما تحت الشجيرات ثم استراح رسول الله صلى الله عليه وآله عشية فصلى ثم قام خطيبا فحمد الله واثنى عليه ثم قال أيها الناس إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن اتبعتموهما وهما كتاب الله وأهل بيتي عترتي، ثم قال أتعلمون أني أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم ثلاث مرات قالوا نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله من كنت مولاه فعلي مولاه...))[٢٣].

وفي رواية الطبراني بعد قوله عترتي ((وإن اللطيف الخبير نَبَّأني انهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض وسألت ذلك لهما، فلا تَقدَّموهُما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم اعلم منكم)).

وبرر الحسن الصلح مع معاوية بقوله: ((إنه سخى بنفسي عنكم يا أهل العراق ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وإنها بكم متاعي.

لقد كان الإمام الحسن يرى أن قراره بالسلم هو القرار الأصوب، وأنه يصب في مصلحة شيعته وشيعة والده وحقن دمائهم، وقد أفصح عن ذلك بطريقة حينما ألقى خطاب الموادعة في الكوفة بعد دخول معاوية إليها، وطلب منه أن يلقي على العامة خطابا بشأن الصلح، وكان معاوية يريد أن يوقعه في موقف حرج بإشارة ابن العاص، فانبرى الإمام الحسن عليه السلام، فتشهّد وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال في بديهته: أما بعد أيها الناس فإن الله هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وإن لهذا الأمر مدة، والدنيا دول، وإن الله عزّ وجل يقول: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾.

ويكفينا من تصريحات الحسن عليه السلام ما قاله أكثر من مرة في سبيل إفهام شيعته حيثيات صلحه مع معاوية: ((ما تدرون ما فعلت والله للذي فعلت خير لشيعتي مما طلعت عليه الشمس)). وما قاله مرة أخرى لبشير الهمداني وهو أحد رؤساء شيعته في الكوفة: ((ما أردت بمصالحتي الا ان أدفع عنكم القتل)).

حين صالح الإمام الحسن وجنح للسلم فإنه كان محكوما بالأهداف والغايات والطرق والأساليب المتاحة والممكنة والمرجو تحقيقها، وحين ثار الإمام الحسين فقد كان محكوما بظروفه التي توجب عليه أن يثور، وحين استشهد كان يجب أن يستشهد.

إنها الخيارات المتاحة والممكنة في ظل التقدير والدراسة لحركة المجتمع ووعيه وموازنة المصالح والمفاسد.

الثمار العظيمة للصلح وشخصية الإمام عليه السلام:

ولو لم يكن الحسن مرهوب الجانب لما احتاج معاوية إلى أن يفاوضه ويوافق على ما طلب من الشروط والضمانات، ولكان عرف ضعف جانب الحسن وانحلال قوته عن طريق عيونه، ولدخل الكوفة من غير أن يكلف نفسه مفاوضة أحد أو ينزل على شروطه ومطالبه[٢٤]، وقد كان بمقدور الحسن أن يقاتل معاوية، بمن كان معه من الأنصار والأعوان، ولكن الحسن كان ذا خلق يجنح للسلم ويكره الفتنة وينبذ الفرقة، وقد جمع الله به رأب الصدع وجمع الكلمة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله أشار[٢٥] إلى ذلك فقال: "إن ابنى هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"[٢٦].

الحسن عليه السلام والزهد في الملك:

فالحسن بن على رضى الله عنه قدوة للمسلمين في الترفع عن حطام الدنيا وطلب ما عند الله تعالى واحتساب الأجر والمثوبة، فالزهد في المناصب والكراسي من الأمور الثقيلة على النفس البشرية، فالإخوان والأصحاب والأقارب يتقاتلون

على الكراسي والمناصب، فانظر إلى التاريخ القديم والحديث ترى العجب العجاب، فالزهد في الرئاسة أقل ما يكون في دنيا الناس، وكم من أناس زهدوا في المال والنساء وغيرها من الأمور، ولكنهم أمام الزعامة والرئاسة والمناصب ينهزمون، فالزهد في الرياسة أقل ما يكون في دنيا الناس وقيل بأنه آخر ما ينزع من صدور الصالحين وتأمل مقولة سفيان الثوري، فقد قال: ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإن نوزع حامى عليها وعادى[٢٧].

إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين:

إن دعوة الرسول صلى الله عليه وآله بأن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين دفعت الحسن إلى التخطيط والاستعداد النفسي للصلح والتغلب على العوائق التي في الطريق، فقد كان هذا الحديث الكلمة الموجهة الرائدة للحسن في اتجاهاته وتصرفاته ومنهج حياته، فقد حلت في قرارة نفسه واستولت على مشاعره وأحاسيسه واختلطت بلحمه ودمه، ومن خلال هذا التوجيه واستيعابه وفهمه له بنى مشروعه الإصلاحي، وقسم مراحله وكان متيقنًا من نتائجه، فالحديث النبوي كان دافعًا أساسيًا وسببًا مركزيًا في اندفاع الحسن للإصلاح.

حقن دماء المسلمين:

قال الحسن رضي الله عنه:... خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفًا، أو أكثر أو أقل، كلهم تنضح أوداجهم دمًا، كلهم يستعدى الله فيما هُريق دمه[٢٨]؟ وقال عليه السلام: ألا إن أمر الله واقع إذ ليس له دافع وإن كره الناس، إني ما أحببت أن لي من أمة محمد مثقال حبة من خردل يهراق فيه محجمة من دم، قد علمت ما ينفعني مما يضرني ألحقوا بطيتكم "جهتكم ونواحيكم"[٢٩]، وقال في خطبته التي تنازل فيها لمعاوية عن الخلافة وتسليمه الأمر إليه:... إما كان حقًا لي تركته لمعاوية إرادة صلاح هذه الأمة وحقن دمائهم[٣٠].

هوامش البحث

(١) الصلابي، محمد علي / الحسن بن علي، شخصيته وعصره، ط ٤ (٢٠٠٦م).
(٢) عماد الدين، ابي الفداء اسماعيل بن كثير ت ٧٧٤: البداية والنهاية (٢٩/٨) الطبعة الاولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٦م.
(٣) المصدر نفسه: (٢٩/٨)، وينظر الحسني، هاشم معروف: سيرة الائمة الاثني عشرية (٤٦١/١)، ط٦.
(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٨٨، الحسني: سيرة الائمة الاثني عشر (٤٦٣/١).
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية (٣٣/٨) وينظر احمد بن اسحق/ تاريخ اليعقوبي (١٥٧/٢).
(٦) تاريخ الخلفاء، ص١٨٩.
(٧) الصلابي: الحسن بن علي ص١٢٩.
(٨) ابن كثير، البداية والنهاية (٣٢/٨).
(٩) الحسني: سيرة الائمة الاثني عشرية (٤٦٣/١).
(١٠) المصدر نفسه.
(١١) الحسني: سيرة الائمة (٤٦٣/١).
(١٢) المصدر نفسه (٤٦٤/١).
(١٣) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٦/٧).
(١٤) المصدر نفسه (١٣/٨) وينظر المسعودي: مروج الذهب (٥/٣).
(١٥) الطبري، محمد بن جديد: تاريخ الطبري (١٥٨/٥). ابن كثير: البداية النهاية (١٣/٨).
(١٦) صحيح: صحيح الجامع (٣٣٤١) ينظر ابن كثير: البداية والنهاية (١٤/٨).
(١٧) ابن كثير: البداية والنهاية (١٤/٨-١٥).
(١٨) الأحزاب: ٣٣.
(١٩) الأنفال: ١.
(٢٠) الحجرات: ٩، ١٠.
(٢١) الحجرات: ١٠.
(٢٢) أخلاق النبي صلى الله عليه وآله في القرآن والسنة (٩٧١/٢).
(٢٣) رواه الحاكم النيسابوري بسنده عن أبي الطفيل.
(٢٤) دراسة في تاريخ خلفاء الدولة الأموية، ص(٦١).
(٢٥)دراسة في تاريخ خلفاء الدولة الأموية، ص(٦١).
(٢٦) البخاري، رقم (٧١٠٩).
(٢٧) سير أعلام النبلاء (٢٦٢/٧).
(٢٨) البداية والنهاية (٢٠٦/١١).

(٢٩) تاريخ دمشق (٨٩/١٤).
(٣٠) المعجم الكبير للطبراني (٢٦/٣) إسناده حسن.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

كتب الحديث.

١- الصلابي، محمد علي /الحسن بن علي، شخصيته وعصره، دار المعرفة بيروت، ط ٤ (٢٠٠٦م).

٢- عماد الدين، ابي الفداء اسماعيل بن كثير ت ٧٧٤: البداية والنهاية مكتبة الصفا، الطبعة الاولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٦.

٣- السيوطي تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط. الأولى مطبعة السعادة بمصر عام ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

٤- هاشم معروف الحسني: سيرة الائمة الاثني عشر الناشر: المكتبة الحيدرية.

٥- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر - المسعودي - طبعة العصرية.

٦- الطبري، محمد بن جديد: تاريخ الطبري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ١٩٦١.

٧- أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني (ت٣٦٩هـ) - أخلاق النبي صلى الله عليه وآله في القرآن والسنة - مؤسسة الأهرام، القاهرة: (١٤٠١هـ - ١٩٨١م). تحقيق أحمد محمد موسى.

٨- دراسة في تاريخ خلفاء الدولة الأموية.

٩- الحافظ الذهبي، سير أعلام النبلاء للذهبي ط. مؤسسة الرسالة بيروت ط. السابعة عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.